قراءة لبعض أفكار سيد قطب

بين الواقعية والمثالية

سعد سعيد الديوه جي

مما لاشك فيه أن (سيد قطب) – رحمه الله – علم من أعلام الفكر الإسلامي، سيبقى على مر الزمن، دفع حياته ثمناً، بثباته على مواقفه، ودفاعه المستميت عن الإسلام والمسلمين. وكان مبدأياً بكل ما تعنيه الكلمة، ولم يتنازل عن مبادئه حتى صعوده إلى مشنقة الظالم.

ونحن لسنا بصدد إطراء هذه الشخصية الشامخة، ولكن ذلك لا يمنع من مناقشة بعض إفكاره حول بعض المفاهيم العامة في الإسلام، خصوصاً وأن بعض هذه الأفكار قد تم اتخاذها من بعض الحركات الإسلامية كشماعة، لتعليق تصوراتهم، وتغطية لجهلهم بالتاريخ. والذي نعتقده أن (سيد قطب) كان أديباً بارزاً، ولغوياً متمكناً، ولكنه لم يكن متعمقاً في التاريخ عموماً، وفي التاريخ الإسلامي خصوصاً، وكانت نظرته لكثير من المفاهيم مثالية، غير واقعية .

فمن المسائل المبدئية التي أشاعها (سيد قطب) في مؤلفاته، إطلاق مصطلح: المجتمع الجاهلي على كل مجتمع لا يطبق الشريعة الإسلامية، حسبما تصورها في زمن عصرها الذهبي المثالي، أي في عصر الخلافة الراشدة. وهو تصور مثالي غير واقعي على الإطلاق، كان يدور في مخيلته منذ شبابه. فمصطلح (المجتمع الجاهلي) كان تعبيراً عن مجتمع وثني قبل الإسلام، ولا يمكن القياس بذلك على أي مجتمع يدين بالإسلام، مهما بلغت أخطاؤه. ففي كتابه الشهير: (كتب وشخصيات) – والذي يحلل فيه، ويقيّم،

وينتقد، كتباً أدبية لكتّاب عصره، أمثال: المازني، والعقاد، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وغيرهم- فإنه يحشر كتاباً لـ(شفيق جبري) بعنوان: (العناصر النفسية في سياسة العرب)، وهو من عنوانه كتاب سياسي، أكثر منه كتاباً أدبياً.

والحقيقة أن الآراء التي ينقلها (سيد قطب) من هذا الكتاب، هي من آراء الأهواء، التي لا تعتمد على الواقعية، ولا على الدراسة السياسية الدينية، والتاريخية الرصينة، ولكنه يبدو قد تأثر بها، كما سنرى ذلك لاحقاً.

حيث يصف الكاتب الطريقة التي تم فيها اختيار(خليفة) لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنها تدل على الارتباك. ناسياً أن مسألة الاستخلاف مسألة دنيوية بحتة، أصلها إقامة العدل، وتطبيق الشريعة، بما يناسب الزمان والمكان، وأن وجود رجال عظماء أمثال (أبي بكر) و(عمر) (رض) لا يدل على الارتباك، و إنما على تجربة جديدة، لم يمارسها المجتمع العربي سابقاً، وبعد انتشار الإسلام. وعدم وجود نصوص قرآنية صريحة، وأحاديث نبوية شريفة، بهذا الخصوص، يدل - بما لا يدع مجالاً للشّك- بأن مسألة الاستخلاف تخضع لعوامل زمنية ومكانية، بجانب الشروط الشرعية.

وينعت (شفيق جبري) تجربة سيدنا (عمر) في اختيار الخليفة، بالارتباك، متناسياً أن (عمر) (رض) قد وضع الشروط للاستخلاف، وهو يعاني من سكرات الموت، إثر الجروح التي أصيب بها، بعد طعنه من قبل (أبي لؤلؤة المجوسي)، وأن ما وضعه من قواعد وشروط يمثل فكراً سياسياً متقدما على عصره بمراحل طويلة، وأن المسألة كانت تشغله حتى قبل أجله، وهو القائل قولته الشهيرة: (لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً، لولّيته)، وهذا من أحد جوانب تكامل شخصية الفاروق (رض)، وبحثه عن الأصلح، بغضّ النظر عن الانحدار الطبقي، والانتماء القبلي.

ويستمر الكاتب بتطاوله، فيقول بحقّ (عمر) (رض): "خاف من التبعة، ففرّ منها". ثم ينتقد طريقة الشورى، بما لا يليق بها، فقد كان من أنصار الرأي الواحد - على ما يبدو-، ليتطاول أكثر، فيقول: "ففكرة عمر

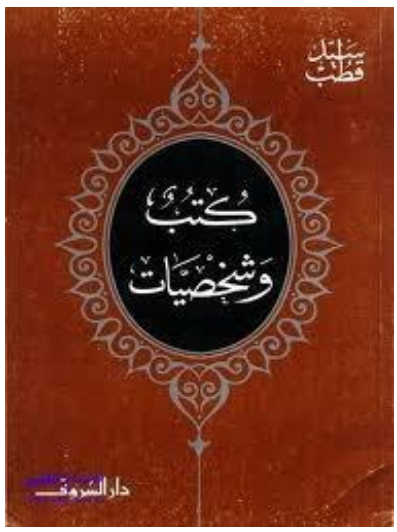

في أن يجعل أمر المسلمين شورى بين ستة، يتزاحمون على الخلافة، غلطة نفسية" !!

ويعرج الكاتب على مسألة الفتنة بين (علي) و(معاوية) (رض) بشكل سطحي، ضمن إطار ديني بحت، لا واقعية فيه، وحسب تصوراته هو. علماً أن المسألة معقدة للغاية، وأن أساسها كان مقتل (عثمان) (رض) بشكل بشع، وعدم القصاص من القتلة. وأن كلا من (علي) و(معاوية) (رض) لم يكفر أحدهما الآخر، ولم ينتقص منه، والله تعالى يقول: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} (٩ الحجرات).

وربما كانت كثير من التفاصيل لم تصل إلينا لجسامة الأمر، ولكن الكاتب يختصر الأمر بأن (معاوية) (رض) قد استخدم الأسلحة القذرة، وهي كلمة سيئة بحق صحابي جليل، وأحد كتبة الوحي. وكان على (سيد قطب) – رحمه الله – أن يقف عندها، لا أن يمر مرور الكرام عليها، ويترك أثرها في نفسه، ويزداد إيغالا في اللجاجة، فيقول: "وحين يركن معاوية، وزميله: عمر بن العاص، إلى الكذب والغش والخديعة والرشوة وشراء الذمم، لا يملك (علي) أن يتدلى إلى هذا الدرك".

وهذا الكلام يتسم بالتشنج، ولا يمكن الركون إليه، في مسألة خطيرة كمسألة الفتنة. فما هي الخديعة والرشوة؟! ومن هم الذين اشترى ذممهم (معاوية)؟! لقد انتهى الأمر بالتحكيم، ورضي سيدنا (علي) (رض) به، ولو كان حكماً باطلاً، لما رضي به (عليّ) (رض). فمن غير المعقول أن يرضى (علي) بحكم باطل، ليست فيه مصلحة للمسلمين!

لقد تأثر (سيد قطب) بهذه الأفكار، بدل أن يحللها سياسياً وتاريخياً، وانساق وراء عاطفة دينية جياشة. فيقول في معرض تقييمه لهذا الكتاب: "وكان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت روح الإسلام، التي لم تتمكن بعد من النفوس". وهكذا يحشر (سيد قطب) روح الإسلام بمسألة سياسية واحدة فقط، ويتهمها بعدم تشرب النفوس بها، نظراً لانتهاء الخلافة الراشدة، التي بدأ نجمها السياسي يأخذ بالانحسار بعد مقتل (عمر) و(عثمان) و(علي) (رض)، وهذه الفكرة هي

التي جرّته لاحقاً لفكرة (المجتمع الجاهلي)، وغيرها من الأفكار المثالية غير الواقعية. علماً أن روح الإسلام هي روح التوحيد والقرآن، والتي يمتلكها المسلم المؤمن، سواء عاش في (الحجاز)، أو مصر، أو أمريكا، فمملكة الله هي مملكة النفوس، قبل مملكة السياسة.

وفي مثالية صارخة وخيالية، وإسقاطاً لكل الثوابت، التي رافقت نشوء الحضارة الإسلامية، من آداب وفنون وعمارة، يشطب (سيد قطب) – رحمه الله – كل هذه الثوابت، متناسياً بأنه لا توجد وسيلة محدودة لإقامة حكم الله.

و(سيد قطب) يذهب بعاطفته بعيداً، فيقول: "ولكن انهزام هذه الروح، ولّما يمض عليها نصف قرن كامل، وقد قُضي عليها فلم تقم لها قائمة بعد – إلا سنوات على يد (عمر بن عبد العزيز)– ثم انطفأ ذلك السراج، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية".

لقد وضع (سيد قطب) التاريخ الإسلامي كله في زاوية ضيقة، وباستخدام جمل أدبية رنانة، لا تمت للواقع بصلة، فيقول: "قد تكون رقعة الإسلام قد امتدت على يدي (معاوية)، ومن جاء بعده، لكن روح الإسلام قد تقلصت وهزمت، بل انطفأت". وهذا يعني أنه إذا انطفأت روح الإسلام منذ ذلك الوقت، فإنه ميّت لا رجاء منه.

لقد كانت أحلام (سيد قطب) لقيام الدولة المثالية، التي لاوجود لها، تصب في خانة المثالية، على الطريقة الأفلاطونية. فإذا كانت الروح الإسلامية قد انطفأت بعد خمسين سنة من وجودها، فهل لنا أن نتحدث عن شيء اسمه إسلام، أو فكر إسلامي، أو حتى حضارة إسلامية؟

ولا نريد أن نذهب بعيداً في كل الأفكار التي جاءت في الكتاب، والتي تصب في هذا المجال، مع استعمال بعض المصطلحات غير المناسبة، بحقّ (معاوية)، و(عمرو بن العاص)، كالميكافيلية، وغيرها. ولكن الأحلام المثالية، وعدم دراسة التاريخ بواقعية، بعيداً عن المثالية، كانت المولّدة لكل الأفكار الشاذة، والحركات العنفية، التي تركض وراء الأحلام في أيامنا هذه، والتي صارت منبعاً للتكفير، سواء على مستوى الأفراد، أم على مستوى المجتمعات.

إن الفكر الإسلامي، بصيغه التي تنادي بمثالية خيالية، هو فكر غير متوازن، كالواقف على رجل واحدة، ثم متى ما شعر بالتعب أو المرض، فإنه سيضطر للجلوس، إن لم يسقط. ولهذا فعلينا أن نكون على درجة كبيرة من الواقعية في مناقشة مثل هذه المسائل الخطيرة❑

عبق الكلمات

كمالُ الدِين، وإتمامُ النعمــة

عبد الباقي يوسف
abdalbakiuosf@gmail.com

يقول الله جل شأنه: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾آل عمران/٣.

يخبر الله تعالى المؤمنين باليأس الذي أصاب ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في ردّهم عن الإسلام، واليأس يعني أنهم بلغوا مبلغ القناعة من ثباتكم في دينكم، وأنهم لا يستطيعون أن يزحزحوكم عنه، ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ مهما بدر منهم، فهي مبادرات يائسة، تبدر من يائسين، ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ لأن خشيتكم مني تزيدكم ثباتاً في دينكم، وتزيدكم قوة على قوة.

ثم قال: ﴿الْيَوْمَ﴾، بعد كل هذه السنوات الطويلة من نزول القرآن، آية آية، وسورة سورة، ثم بعد كل هذه القرون الطويلة من تاريخ ﴿الدِّينَ﴾، الذي هو ﴿عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ آل عمران ١٩، وكل تلك الأعداد الهائلة من الأنبياء والرسل، والأحداث ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ آل عمران ٨٥، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾فصّلت٣٣.

﴿الْيَوْمَ﴾– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ – استوى الدين على كماله، وهذا الاستواء بث اليأس في نفوس ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ .. ﴿الْيَوْمَ﴾– أصبحتم أكثر قوة، أكثر حضوراً، أكثر علماً، أكثر معرفة، وأكثر توازناً، وأكثر نضجاً.. ﴿الْيَوْمَ﴾، بعد عصر الجمعةِ، يومَ عَرَفةَ، في حَجّةِ الوداع، والنبي (صلى الله عليه وسلم) واقفٌ بـ(عَرَفاتٍ)، على (العضباء)، فكادت عضُدُ الناقة تندقّ، لثقلها، فبرَكت.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾– خذوا البشارة الكبرى عني، فقد ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أبلغته بكم حدّ الكمال، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، بأن – ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾،

دون أن أدع نقصاً فيه – ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾، ذلك أن الإسلام هو السبيل الوحيد للنجاة، وهو صراط الله الوحيد المستقيم.

ومعنى ذلك أن الله لم يكن قد أكمل للناس دينهم، لأن الآيات بدأت تأتي معها بالأحكام والتشريعات الجديدة، ودوماً كان يأتي الجديد في التنزيل، حتى اكتمل الجديد بالجديد.. ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، يعني أن الدين كان قيد الإكمال، قبل ﴿الْيَوْمَ﴾.. و﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، أن نعمة الله بلغت الإتمام ﴿الْيَوْمَ﴾..

وقوله جل وعلا: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾، يعني أن (الإسلام)، قبل ﴿الْيَوْمَ﴾، كان في مراحل بلوغ مرتبة أن يرضيه الله للناس﴿ دِيناً﴾.. فلو لم يرسل الله – جل ثناؤه– محمداً (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين، للبث رسالة الدين دون خاتمة. ولو انقطع التنزيل في منتصفه، أو في بعض أجزائه، للبث القرآن دون إكمال.

وهذه الآية هي حاسمة في كمال الدين، فلو توفي الرسول (صلى الله عليه وسلم) دون نزول هذه الآية، لعلّ البعض قال بأن القرآن لم يكتمل، لأن الرسول قد تُوفيّ، والقرآنُ قيْدَ النزول، ولا شيء يشير بأن القرآن نزل بكامله. فكان بيان الله للناس، قبل وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن ﴿الْيَوْمَ﴾ بلغ كل شيء أوجه في الدين، وأنه عند وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، سيكون قد تلقى كل شيء، وبلّغ الناس ما تلقاه.

وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قرأ (سورة المائدة)، في (حجّة الوداع)، وقال: (يا أيها الناس، إن سورة المائدة من آخر ما نزل، فأحلوا حلالها، وحرموا حرامها).

وقد جاء الخطاب هنا لعموم المؤمنين، ولم يخص به الرسول، كأن يقول له: (لك)، بدلاً عن ﴿لَكُمْ﴾، وذلك للمزيد من البيان بأنه رسول بين الله والناس، وأن الله يخاطب الناس على لسانه، و﴿الْيَوْمَ﴾ قد قام بكل ما عهد الله إليه. فلو لبثت آية، أو كلمة، لم يبلّغها للناس، لما كان كمال الدين، ولما كانت تمام النعمة. وبالتالي، لما بلَغَ الإسلام درجةَ أن يرضاه الله للناس ﴿دِيناً﴾. ولذلك بكى (عمر) عندما نزلت هذه الآية، ولعلّه بدأ يدرك أنها في وجهها الآخر بمثابة النعي لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): (ما يُبكيك يا عمر)؟ قال: (أبكاني أنّا كنا في زيادةٍ من ديننا، فإذا كَمَلَ، فإنه لا يكملُ شيءٌ إلا نقَصَ)، فقال عليه الصلاة والسلام: (صدقت). ويُروى أنه (صلى الله عليه وسلم) ما لبِثَ بعد ذلك، إلا واحداً وثمانين يوماً ❐